

هشام جعيط ومنهجه النقدي في دراسة أحداث الفتنة الكبرى

Hisham Jaait and His Critical Approach to Studying The Events of the Great Sedition

د. محمد الغريسي

باحث بمدرسة الدكتوراه – جامعة الزيتونة، تونس

ghrissimohamed22160187@gmail.com

الملخص:

يفترض الأساس النظري لهذا البحث أنّ المفكر والمؤرخ التونسي هشام جعيط المتشبع بالأفكار الاستشراقية وأحد أعلام الفكر العربي المعاصر خلّد مسيرته كباحث بورقات علمية أبرزها كتاب الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، حيث أعاد قراءة أحداث صدر الإسلام مستثمرا أهمّ ما توصلت إليه أبحاث علم السياسة والاجتماع والأنثروبولوجيا والتاريخ... وغيرها، فكانت محصلتها كتاب الفتنة الذي استلهمه صاحبه من التاريخ الصحيح بعيدا عن التعاطف والتوادد، سلاحه الشك والنقد والاستقراء؛ حيث قام بتعرية الجدل الديني والسياسي أو اللاهوت والناسوت والتي طبعت أحداث الإسلام المبكر. وخلص إلى أنّ الفتنة المنتهية كصراع حربيّ ستبقى حاضرة في الضمائر بل هي المولدة لحركة التاريخ.

من أجل هذا سوف نشتغل على نسخة مترجمة للكتاب وسنبذل الوسع في الكشف عن مكوناته سيما ما يتعلّق منه بالمنهج النقدي، ولهذا سنعمل على منهجي التحليل والاستقراء لدراسة العناوين الآتية:

1- تقديم الكتاب.

2- فلسفة التاريخ عند هشام جعيط.

3- قواعد المنهج في علم التاريخ عند جعيط.

الكلمات المفتاحية: هشام جعيط، المنهج النقدي، الفتن الكبرى.

Abstract:

The Theoretical basis of this research assumes that the Tunisian thinker and historian Hisham Jaait, who is imbued with Orientalist ideas and one of the figures of contemporary Arab thought, immortalized his career as a researcher with scientific papers, most notably the book Sedition: The Dialectic of Religion and

Politics in Early Islam, in which he reread the events of early Islam, exploiting the most important findings of political and sociological research, Anthropology, history...etc. Its outcome was the Book of Sedition, whose author was inspired by authentic history, far from sympathy. His weapons were doubt, criticism, and extrapolation. Where he exposed the religious and political controversy, or theology and humanity that characterized the events of early Islam. He concluded that the strife that ended as a war conflict will remain present in consciences, but rather it is the generator of the movement of history.

For this reason, we will work on a translated copy of the book and we will make every effort to reveal its content, especially what is related to the critical method. For this reason, we will rely on the analysis and induction methods to study the following titles:

- 1- Presenting the book.
- 2-The philosophy of history according to Hisham Jaait.
- 3-The rules of the method in history according to Jaait.

Keywords: Hichem Jaait, Critical Methodology, Major Fitna (Great Discord).

المقدمة:

يعدّ محمد هشام جعيط أحد أعلام الفكر العربيّ ممّن اشتغل ونقّب بين ثنايا صفحات التاريخ الإسلاميّ مثيرا إشكالات مركزية حول الموروث الحضاريّ العربيّ في محاولة منه لإمطاة اللثام عن الحقيقة التاريخية التي لُقها الكثير من الغموض وهذا بيّن في دراسته للسيرة النبوية وشخصية النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلّم فضلا عن دراسات أخرى مستندا إلى جملة من العلوم المعاول كالأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الأديان المقارنة وكذلك الفلسفة في مسعى لتقديم قراءات موضوعية لما يعرض له.

وتكمن أهمية هشام جعيط كمفكّر أنّ كتاباته وسمت بالاعتدال والوسطية والدعوة إلى التحديث والتنوير فيقدم قراءاته النقدية من خلال تعامله المباشر مع الوثائق التاريخية دون الرضوخ إلى الإكراهات السياسية فيقدم قراءات تنويرية شكّلت نهجا حديثا في تاريخ للحضارات والحضارة العربية الإسلامية على وجه الخصوص، ولا نبالغ إذا اعتبرنا أثره الموسوم بالفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر أحد أبرز مؤلفاته التي دخلت زمرة المراجع التاريخية الرئيسية التي لا يسع الباحث تجاهلها.

وتتمثل طرافة الكتاب في أنّ صاحبه مؤرّخ موهوب يتطرق لمسألة طالما شغلت المسلمين قديما وحديثا وهي الفتنة التي دارت رحاها بين المسلمين رغم حداثة عدهم بالبعثة، وهو وإن كان مطلقا بعمق على كتابات المستشرقين في المسألة فإنّه وقف منها موقفا الناقد، كلّ ذلك وغيره يحفزنا على الحفر المعرفي في تراث هشام جعيط آملين أن

يكون هذا البحث حافزا للباحثين لإثراء مكتبتنا العربية بل والعالمية بمزيد من الأعمال حول فكر هشام جعيط الذي لا ريب أنّ منجزه الثري سيترك بصمته بعمق في الساحة الثقافية والفكرية.

تقديم كتاب الفتنة

نتناول بالدراسة والتحليل أثرا لهشام جعيط المفكر التونسي موسوم بالفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، في طبعة لدار الطليعة بلبنان؛ حيث ترجمه خليل أحمد: أستاذ المعرفة والفلسفة بالجامعة اللبنانية في ثلاثمائة وسبعة وثلاثون صفحة. وللإشارة فإنّ الكتاب تمّت طبعته أربع مرات؛ الأولى سنة تسعون وتسع مائة وألف والثانية سنة ثلاثة وتسعون وتسع مائة وألف والثالثة سنة خمسة وتسعون وتسع مائة وألف، والرابعة سنة ألفان، وهي وإن دلت على شيء تدلّ على كثرة الإقبال على اقتناء الكتاب لما يمثّله من إضافة نوعية للفكر العربي والعالمي. اشتمل الكتاب على خمس محطّات معرفية سبقت بتمهيد وهي:

1- العصر التأسيسي.

2- الفتنة كأزمة وصدع القتل.

3- الفتنة الهوجاء زمن الحرب.

4- خطّ المسالمة: خطّ التصلب.

5- الصراع على السّلطة.

وذيلته صاحبه بفهرس للمصادر والمراجع العربية منها والأجنبية وختمه بفهرس للمحتويات. وافتتح جعيط كتابه بتأكيد فكرة مركزية وهي أن إسلام المرحلة التأسيسية كان إسلاما متواضعا كما يراه المخيال الجمعي في العصور اللاحقة، ورغم ذلك كانت هذه الحقبة ممتلئة بالقيم الروحية والمعنوية التي أشاعها عصر النبوة، ويوضّح المؤلف أنّ عرضه من هذا العرض هو أن: "يمسك القارئ بخيط يقوده إلى... الفتنة الكبرى".¹

وفي ذات الحين نراه يعتبر أنّ الأحداث التي عايشها المسلمون في النصف الثاني من خلافة عثمان بن عفان كانت كفيلة بأن تثير انقسامات الإسلام الكبرى بين مذاهب السنّة والشّيعية والخوارج مباشرة أو على أمد قريب بل إنّنا نجد الكاتب شديد الاهتمام بأحداث الفتنة متسائلا عمّا إذا كانت دينامية الفتنة متعلّقة بالنزاعات السياسية أم بالصراعات الدينية أم أنّها متّصلة باللّهث وراء الحكم ومغانمه؟

وفي ختام تمهيده نجده يوضّح أنّ تحليله لأحداث الفتنة سوف يستلهمه من التاريخ الصحيح بعيدا عن التعاطف والتّوادر ليؤسّس بذلك نظرة موضوعية قائمة على الحياد في التعاطي مع الأحداث تاركا حقّ الحكم والنّظر للقارئ. ومن هنا نفهم أنّ قيمة كتاب الفتنة تستمدّ من تشديده على الجدلية التي يجعل منها جعيط عنوانا فرعيا لكتابه الدين والسياسة وتداخلهما منذ صدر الإسلام والتّجاذبات بينهما منذ فترة النبوة مروراً بفتح مكّة ثمّ تأسيس النّوّة الأولى للدّولة والتفاف الناس حول مشروع الأمة الموحّدة وصولاً إلى فترة التفكّك والانفلات والهدم الدّاتي التي يتناولها المؤلف بالسرد والتحليل.

¹ جعيط، هشام، الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام، ترجمة خليل أحمد، دار الطليعة، لبنان، ط4، 2000، ص5.

2- فلسفة التاريخ عند هشام جعيط

يؤكد هشام جعيط بعد دراسته للفترة التي سماها الجاهلية حياة العرب البدو¹ الذين نشأوا داخل الجزيرة العربية ولا سلطان لهم إلا النظام القبلي كنظام سياسي أو كوازع يدفع عدوان بعضهم عن بعض، ولقبائل العرب البدو إسهامات وحضارة مهمة في التاريخ العربي، على الرغم من أنهم كانوا يعيشون حياة بدائية في الصحراء، إلا أن لديهم تراث ثقافي غني وتاريخ طويل من الإنجازات. كما قدم العرب البدو العديد من الإسهامات في مجالات مثل الشعر والأدب والفلسفة والتجارة والإبداعات العلمية، وكان لديهم نظام اجتماعي وأخلاقي وقيم تميزت بها حضارتهم كحضارة تاريخية هامة ومؤثرة في تشكيل التاريخ والثقافة العربي. وهؤلاء وإن كانت حضارتهم بسيطة مقارنة بالحضارات المحيطة بهم فقد غيرت الدعوة المحمدية قدر هذه الجماعات التي دخلت في الإسلام حيث صارت أمه وبالتالي امتلك التراثان متميزا تحولت بموجبه إلى جماعه منسجمه في الممارسة والوجدان والنموذج الضابط لها وهو النبي صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله وتقريراته.²

يبدو أن جعيط ينظر لأحداث الفتنة كظواهر سياسية وتاريخية بل يعتبرها ظواهر إنسانية متغيرة من زمن إلى آخر ومن مكان إلى آخر، وذلك يتطلب مواصلة الدراسة والتحليل لتلك الظواهر وبمطالعنا لهذا الكتاب نلاحظ أنه لا يمكن فهم أحداث الفتنة دون أن نأخذ في الاعتبار الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي انبثقت منها هذه الظواهر والأحداث ومن هنا بدا جعيط متأثرا أيما تأثر بعلم الاجتماع السياسي كعلم يدرس الظواهر والنظم السياسية في ضوء البناء الاجتماعي والثقافة السائدة في المجتمع. ويبدو أن العوامل المسؤولة عن هذه التغيرات متنوعة ومنها تغير الأنظمة السياسية والقوى الحاكمة قد تؤدي إلى تغييرات في السياسات والقوانين التي تؤثر بدورها على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ينتصر جعيط ولو ضمينا لمسعى النبي محمد صلى الله عليه وسلم والذي أسس دولة إسلامية معتدلة وعادلة تقوم على قيم العدل والرحمة والتسامح، وكانت أهم أهدافه تحقيق العدل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، وضمان حقوق الناس وحماية حرياتهم، وتعزيز المساواة والتعايش السلمي بين جميع أفراد المجتمع بغض النظر عن انتماءهم الدينية أو العرقية. كما كان للنبي رغبة في إقامة دولة إسلامية تقوم على تعاليم الإسلام وتعزز العدل والشورى وتحافظ على حقوق الفرد وتعطي الفرص المتساوية للجميع، بالإضافة إلى ذلك، كان يرغب في بناء دولة تحمي الضعفاء والفقراء وتوفر لهم الرعاية الاجتماعية والمساواة في الفرص فضلا عن بناء مجتمع عادل ومتسامح يقوم على القيم الإنسانية والرحمة والعدل التي تعكس تعاليم الإسلام.

يظهر أن جعيط من خلال الصفحات الأولى من كتابه مؤلف متشعب بالفكر الخلدوني الذي لم تكن كتاباته مجرد سرد للحوادث والأزمات فقط وإنما كانت ذات أبعاد ومضامين اجتماعية واقتصادية وسياسية فحاول قدر

C. Robin, la civilisation de l'Arabie méridionale avant l'Islam, in l'Arabie du sud, 1

ed.J.Chelhod,Num1, PP208-210.

2 جعيط، الفتنة، ص 14.

مستطاعه أن يغوص في قلب المناخ الذهبي والعقليّ لمجتمع صدر الإسلام ولهذا نجده يردّ على مزاعم المستشرقين ومنهم باتريسيّاكرون وغيرها من القائلين بأنّ غرض النبيّ محمد عليه السّلام من الدّعوة طيلة ثلاث عشرة سنة كانت إنشاء دولة يسيطر بها على مكّة وإظهار النبيّ البراغماتيّ، فراح يقول: "فكون خصوم النبيّ ينسبون إليه مطامح لا يعني إطلاقاً أنه كان صاحبها حقّاً يعني أنّ أفقهم قد بقي محصوراً ومحدوداً بمدى مدبنتهم اللئيمة وموازن التّفوذ الاجتماعيّ وفوق ذلك لم يكن في تلك الحاضرة سلطة يمكن الاستيلاء عليها".¹

ومن هنا يتّضح مسعى جعيّط حيث لا يمكن الفصل بين التاريخ ومختلف العلوم والفنون ومنها الدّين، فالمشكلة تبدأ من ضرورة القراءة النقديّة والموضوعيّة للتّاريخ والتي يجب أن ترتكز على أسس عقليّة، وفضلاً عن ذلك فإنّ القراءة النقديّة للأحداث التاريخيّة لا تتوقّف عند مجرّد السرد بل تتعدّى ذلك إلى مرحلة الإنتاج العلميّ وتصوّر علم شموليّ للظواهر التاريخيّة من خلال استخدام الاستقراء والمنهج المقارن الأمر الذي بدا واضحاً من خلال مقارنته لمقالات المستشرقين بمختلف مشاربهم، ذلك أنّ المنهج الغربيّ للبحث خال من أيّ ميزان علميّ "فالواقع أنّ المنهج الغربيّ خال إلى الآن من أيّ ميزان موضوعيّ لتحقيق كلّ ما يتعلّق بالرّواية والنّقل... والأداة التي يستخدم بها الباحث ملاحظته ووجدانه وخياله و كلّ ما قد يقع عليه من آثار وأحداث وقائع وكيفيّة البحث هي أن يعكف الباحث على تجمّع لديه من هذه الآثار أو الأحداث فيفدح فيها الملاحظة والوجدان والخيال ليستنتج من وراء ذلك ما قد يطمئنّ إليه من مبادئ وأحكام وقائع".²

وأحسب أنّ فرادة جعيّط تكمن في أنّه كان يميّز بين ضربين للتّاريخ أحدهما يتمثل في سرد الأخبار ونقل الرّوايات والآخر الذي يتبنّاه صاحبنا الذي لا يبلغه إلاّ الثقات والمختصّين من العلماء المدقّقين وهو نظر وتحقيق وتعليل للأحداث والوقائع ومعرفة بمبادئها وكيفيتها وأسبابها وغرضه من ذلك الابتعاد عن التّقليد الأعمى والنّقل دون تمحيص.

ولم يخالف جعيّط من سبقه من المؤرخين حينما تعرض لاعتبار النبيّ محمّد صلى الله عليه وسلم أوّل سياسيّ في الإسلام وأوّل قائد وأوّل حاكم أقام دولة ناشئة على أسس روعيت فيها قيم النّبوة ومبادئها واستمر على نهجه خليفته أبو بكر وعمر لكن الشرخ حصل منذ بداية تكدّس الثورات بسبب اتّساع رقعة الدّولة. وكانت الثّورات تجد طريقها نحو أولئك الذين يستطيعون أو يجيدون التقاطها³ وكان عهد عثمان هو عهد الدعة والرّاحة والمتعة وعصر الرّخاء، ونتيجة لسياساته الماليّة نغم عليه النّاس أموراً عجّلت بالثورة عليه.⁴

(1) جعيّط، الفتنة، ص 21.

(2) البوطي، محمّد سعيد رمضان، كبرى اليقينيّات الكونيّة، دار الفكر، سوريا، ط 8، 1982، ص 18.

(3) جعيّط، الفتنة، ص 60.

راجع: علال، خالد الكبير، بحوث حول الخلافة والفتنة الكبرى خلال العهد الراشدي، دار كنوز الحكمة، الجزائر، ط 1، 2009.

(4) أظهر بعض الناس نعمتهم على أمير المؤمنين عثمان بن عفان وولاه، ثم انتهى بهم الأمر إلى الثورة عليه و قتله 35 هـ، فلماذا أقدموا على ذلك؟، و هل خصّ عثمان أقاربه بالإمارة دون غيرهم؟، وهل ولي من أقاربه من لا يصلح للإمارة؟، وهل كان عثمان ضعيفاً عاجزاً عن إدارة شؤون الدولة؟،

ولو راجعنا كتاب الفتنة لألفينا صاحبه يتحدث عن هذه الأمور من الصفحة الستين إلى الصفحة سبعة وستين وحاول جعيط أن يدقق في بعض الأمور بل اعترض حتى على معطيات بعض المؤرخين خاصة المسعودي صاحب مروج الذهب حيث يقول: "وفي رأبي أنّ المسعودي يريد خطأ"¹.

وما يؤكد فريدة هشام جعيط أنه بحث الحرب الأهلية في دار الإسلام والمسماة بالفتنة الكبرى فضلا عن دواعي نشوبها، ولا شك أنّ جدل العلاقة بين المجالين الديني والسياسي جعلت من الاحتراب عنوانا لحقبة صدر الإسلام. وقد سعى المؤلف إلى الإمام بالتفاصيل التاريخية الدقيقة التي مثلت منعرجات حاسمة كانت فيها الغلبة للجانب الديني تارة وللجانب السياسي تارة أخرى؛ فمثلا لو طالعنا الصفحات التي تحدّث فيها جعيط عن فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه لألفينا يدقق ويحلّل مسوغات خروج الخارجين على الخليفة وربما يمكننا تصنيفها إلى "معايب صحّ أنّ الخارجين عليه أظهروا تسويغهم الخروج عليه بما ومعاب لم يصح عن الخارجين عليه سوّغوا بما خروجهم عليه ومعايب أخرى لا سند لها، وهذه المعايب منها ما هو مفترى عليه ومنها ما يمثّل منقبة له قلبتها القلوب الحاقدة إلى مثالب فلم يكن عثمان في الظاهر إلا ضحية قربانية مشحونة بكلّ عنف البشر لأنّ الهدوء لم يدم من بعده إلا قليلا"². ويوضّح جعيط أن أسباب الخروج لها أبعادا عميقة تتصل رأسا بمطامح سياسية واقتصادية للتأثرين.³

ونجمل القول في هذا الإطار وبعد مطالعتنا لبعض الحوادث يتراءى لنا أنّ جعيط عمل على تأسيس قراءة جديدة لأحداث الفتنة مغيرة في جانب منها لتوجّهات المستشرقين بل مغيرة في جانب منها أيضا لروايات المؤرخين أنفسهم الذين لم يكن همهم سوى تجميع المادّة دون تمحيص، ما يجعل القارئ يتأرجح بين حقائق تصل في بعض الأحيان حدّ التناقض. وهكذا يكون جعيط قد وفّر للخزانة العربية مؤلفا ينتقل بالتاريخ من الفنّ إلى العلم ومن التأمل إلى المنهج حتى أنه استطاع أن يغيّر الوعي العربيّ الذي لا بدّ أن يقطع مع التقليد والجدل العقيم الذي من شأنه أن يشوّه التاريخ. وهكذا يظهر أن جعيط لم يكن غرضه حشو كتابه بالأخبار بقدر ما وجدناه يلجأ إلى الانتقاء دون أن يغامر بإصدار موقف أو حكم عامّ أي أنه أثر استعمال أخبار دون أخرى ممّا نتج عنه انحياز في

و هل كانت رعيته تعاني من الظلم الاقتصادي والسياسي؟، و ما هي الأسباب الحقيقية في الثورة على الخليفة الشهيد عثمان بن عفان؟ كل هذه التساؤلات وغيرها أجبت عنها في كتابي تاريخ الإسلام السياسي من الحكومة النبوية حتى العصر العباسي الأول.

راجع: الغريسي، محمد، تاريخ الإسلام السياسي من الحكومة النبوية حتى العصر العباسي الأول، مجمع الأطرش للكتاب المختص، تونس، 2023.

(1) جعيط، الفتنة، ص62.

راجع: المودودي، أبو الأعلى، الخلافة والملك، شركة الشهاب، الجزائر، د.ت، ص93.

(2) جعيط، مصدر سابق، ص119.

(3) وقد يحظر على كثير من الناس أنّ الناقمين على عثمان وولائه، ما دفعهم إلى الثورة عليه وقتله إلا الظلم السياسي. فهل هذا صحيح؟، إنه ليس صحيحا، لأن أيامه - أي عثمان - تجلّت فيها مظاهر العدل السياسي بشكل كبير، منها أن عهده اتّسم بالأمن والاستقرار والرّخاء، وقد صحّ الخبر في أن أيامه - أي عثمان - كان فيها العدو مُتقى، والخيرات كثيرة، والناس في وئام، يغمرهم الحبّ والإخاء والألفة، ولا يخاف مؤمن مؤمنا في الأمصار الإسلامية.

تأويل الماضي مع أنه يتسلّح عادة بالطبري حين تعلق الأمر بالفتنة كفترة دقيقة من تاريخ المسلمين، بل وأشدّها حساسيّة.

ولا جدال هنا أنّ لهذا الفصل المنهجيّ نتائج هامة كقيلة بأنّ تغيّر من النّظام المعرفيّ المعتاد ومن هذه النتائج اتّخاذ موقف عقلايّي حقيقيّ من كل خطاب يخبر عن وقائع معيّنة، ولا ريب هنا أنّنا بصدد موقف إبستمولوجيّ أصيل ينطلق من تصوّر جديد للتّاريخ فينتهي على الأقلّ بالنّسبة للنتائج المنهجية المفروض منطقيّاً ترتيبها عليه إلى ثورة معرفيّة.

وربّما يمثل كتاب الفتنة طفرة معرفيّة في دراسة وتحقيق صفحة من تاريخ المسلمين لاعتبارات مهمة منها أن جعيّط قد باشر بنقد من سبقوه من المؤرّخين فيما أوردوه من أخبار مثل الطبري والبلاذري والمسعودي... وغيرهم، وقد تعرّض للمسألة تحت عنوان أوردته بالصفحة تسع و عشرون ومائة تحت مسمى "مسألة المصادر"، وواصل نقد الإخباريين في اثنا عشرة صفحة وهي مساحة كافية لفهم أنّ نقده لم يكن مجرد التّقد وإمّا كان الهدف من وراءه البحث عن الحقيقة والابتعاد عن التّقل دون تمحيص ويمكن القول إنّ مقلّد لابن خلدون ومن بعده ديكارت في الشكّ في صيغ (قال الأستاذ) التي صاحبت أعمال القدامى كأرسطو والمسعودي، وبالتالي ليس هناك من هو مضطر إلى التّثقة في كلّ ما قيل ما دامت هناك مزاعم تبدو غير صحيحة عند التحليل.¹

ويتجلى هذا المنهج النقدي في محاولته لجم الخيال عند المؤرّخين؛ فقد انتقدهم في عدد قتلى الجمل ثمّ انتقد أخبارهم التي جعلت من علي رضي الله عنه رجلاً مهزوماً أمام دعاة الفتنة مهزوماً أمام القراء كونهم النواة الأولى للفكر الخارجي، و يعتبر أنّ ذلك من وضع أبي مخنف فراح يقرّر بالقول: "ليس ممكناً القبول برواية أبي مخنف كما أنّه ليس ممكناً التّسليم بدور الأشعث وكذلك لا يمكن الأخذ بهذه الصورة المتخيّلة لعليّ عاجز مرغم على القبول بأراء هذا الفريق أو ذاك فاقد لكلّ مبادرة".²

وهكذا يؤرخ جعيّط لأحداث الفتنة معتبراً أنّ الصراعات الاجتماعية والطبقية اصطبغت بطابع لاهوتيّ ما ينفكّ يدور حول فلکها هاجس الشرعية المفقودة والتي بلغت أقصاها حرب معاوية وأهل الشّام وعلي وأهل المدينة والكوفة. ومن هنا يبرز لنا المؤلّف أن الفتنة التي حسب النبي صلى الله عليه وسلم وخليفته قد وئدت من خلال توحيد العرب وإرساء نظام سياسيّ واجتماعيّ واضح المعالم، فقد عادت لتظهر مع أوّل غياب للكليّ المقدّس والبشري حين تدخّل الإنساني الممثل في تصرفات عثمان وغيره.

وبعد طول تحليل ينتهي جعيّط إلى أن تاريخ الحزبيّة في الإسلام متّصل بشكل وثيق بأحداث الفتنة الكبرى ومقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفّان وما عقب ذلك من وصول علي بن أبي طالب إلى سدّة الحكم وقيام الحرب الأهلية في الجمل وصفين ولقد كان من نتائج صفين المباشرة قيام حركة الخوارج ثم معركة النهروان واغتيال الإمام علي واستيلاء معاوية على الخلافة ووقوف آل علي وشيعته موقف المعارضة، والفتنة لم تنتهي بل ستواصل فعلها في الأمة

(1) مغربي، عبدالغني، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة محمد الشريف بن دالي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988، ص56.

(2) جعيّط، الفتنة، ص208.

و "الفتنة المنتهية كصراع حربيّ ستواصل السير في الضمائر؛ فقد نجم عنها التشيع والخوارج وأيضا السلالة الأموية وورثتها والفتنة كانت مولدة للتاريخ خلافا لفتن أخرى كثيرة في إسلام القرن الأول".¹

وإنّ لأجد جعيط يفهم التاريخ بمعناه الشموليّ لا أن يحصر حدثا بعينه في سبب بعينه وإنّما هي تفاعلات تداخل فيها اللاهوت بالناسوت، وفي ظل كل ذلك يحسب لجعيط أنه تحرر من الاستقطاب واجترح لنفسه منهجا شاملا وموسوعيا متشعبا بالمصادر الكبرى والفرعية للمؤرخين من أمثال الطبري والبلاذري وغيرهم. وفيما يتصل بالمستشرقين فقد بدا انتقائيا يأخذ بما لا يتعارض مع التاريخ والعقل ويدرأ عنه ما لا يراه مناسباً بمنهج علمي رصين راعى فيه حدس المؤرخ وانتماءه إلى هذه الحضارة وهذا أثار حفيظة بعضهم من الذين اتهموه بتزوير التاريخ والعداء للعقلانية والتحامل على المستشرقين الذين ما قدروا على إنتاج هذا الكمّ من الدراسات عن الإسلام إلا حينما تجردوا من الانتماء العقائدي والحكم العاطفي واكتفوا بتكريس أدوات الفيلولوجيا وعلم التاريخ الحديث.²

و نحسب أنّ جعيط محقّ بخلاف منتقديه و يعضد ذلك ما يراه مصطفى السباعي بخصوص الموازين العلمية في بحوث المستشرقين حيث يقول: "يعتمد جمهرة المستشرقين في تحرير أبحاثهم عن الشريعة الإسلامية على ميزان غريب بالغ الغرابة في ميدان البحث العلميّ فمن المعروف أنّ العالم المخلص يتجرّد عن كلّ هوى و ميل شخصيّ فيما يريد البحث عنه و يتابع النصوص و المراجع الموثوق بها، فما أدّت إليه بعد المقارنة و التّمحيص كان هو النتيجة المحتمة التي ينبغي عليه اعتقادها، لكن أغلب هؤلاء المستشرقين يضعون في أذهانهم فكرة معيّنة يريدون تصيّد الأدلة لإثباتها، و حين يبحثون عن هذه الأدلة لا تهتمهم صحتها بمقدار ما يهتمهم إمكان الاستفادة منها لدعم آرائهم الشخصيّة".³

3-قواعد المنهج في علم التاريخ عند جعيط

نُهج هشام جعيط في أثره الفتنة منهجا متميزا تمثل في أعمال الشكوك وعدم قبول الروايات التي تتعارض مع بدهة العقول؛ مثال ذلك نقده للمؤرخين في تعداد عدد قتلى الجمل وصفين وهو يرى أنّ المؤرخين بالغوا في هذا الرّقم، هذا بالإضافة إلى اعتماده على قاعدة التّحليل والتّركيب وغرضه من هذا كلّهُ هو الخروج بمجموعة من القوانين القابلة للتعميم وهذا جلي في تحليلاته التي غلب عليها الطابع الاجتماعي والسياسي واللاهوتي، و ذلك لأنّ إدراك حقيقة من الحقائق ينبغي أن تكون على أساس علمي لأنّ العلم لا يتولّد إلاّ عن علم مثله و الظنّ لا يصلح أن يكون سبيلا إلى العلم بحال.⁴

يبدو أنّ جعيط يروم توضيح أنّ علم التاريخ من العلوم غير المباشرة التي تنظر إلى الخلف وهذا بخلاف جميع العلوم الأخرى بما في ذلك علمي الاجتماع والسياسة وهي العلوم التي تنظر إلى الظاهرة في حال وقوعها، ولعلّ ذلك

(1) جعيط، الفتنة، ص325.

(2) راجع: المزوغي، محمد، الاستشراق والمستشرقون في فكر هشام جعيط، منشورات الجمل، 2016.

(3) السباعي، مصطفى، منهجية الاستشراق والمستشرقون، المكتب الإسلامي، لبنان، ط1، 1979، ص34.

(4) صابر، حلمي عبدالمنعم، منهجية البحث العلميّ و ضوابطه في الإسلام، رابطة العالم الإسلامي، السعودية، 1418هـ، ص59.

يعد أحد أبرز الصعوبات التي تواجه الباحث في الدراسات التاريخية إذ كيف يمكن للباحث أن يربط بين الماضي والحاضر والمستقبل، وهو المعنى الذي أكده جعيط من أن الفتنة الكبرى سوف تكون لها استتبعات واستردادات على الوعي الجمعي لدى المسلمين طيلة وجودهم على البسيطة فراح يقول: "الفتنة المنتهية كصراع حربي ستواصل السير في الضمائر".¹ وربّما يكون جعيط متأثراً بهذا الطرح بشارل فيكتور لانجلوا Langlois Charles Victor (1863-1969) الذي يعتبر أن الظاهرة التاريخية غير قابلة للتكرار للمعرفة التاريخية في جوهرها معرف غير مباشرة يجب أن تختلف طريقة العلم التاريخي جذرياً عن طريقة العلوم المباشرة.²

و من هنا يمكننا اعتبار جعيط رائداً للنزعة الاستقرائية وهو وإن لم يكن سباقاً في ذلك حيث سبقه ابن خلدون وآخرون فإنه التزم بمبادئ العقل وقواعد الاستنتاج، وهكذا فهو يربط في أثره بين الواقع وشروط الاستدلال والبرهنة وهذا ما يجب توافره في دراسة الأخبار "فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري... و نميز ما يلحقه من الأحوال لذاته بمقتضى طبعه و ما يكون عارضاً لا يعتد به"³، فإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه على حد عبارته ابن خلدون.

لقد جعل جعيط من الشك قاعدة أولية في دراسة الأخبار وهذا من خلال تجاوز النقل والتقليد وهو ما يمكن استخلاصه أثناء حديثه ومناقشته بعض مقالات الشيعة ومنها أن النبي عليه السلام أوصى أن يكون عليّ خليفة من بعده. ومن هنا يكون النقل والتقليد مخالفاً لمنهج الشك الموصول إلى الحق من الناحية المنهجية ذلك أن أعمال الشك وطرح السؤال حول الأخبار ومدى صحته يعتبر مدخلاً إلى التحقيق والاستقراء وهو منهج حضر بكثافة في كتاب الفتنة و آية ذلك قوله: "إذا حاولنا القيام بمقارنة بين ثلاث قراءات للميتا تاريخ النبوي؛ القراءة السنية، القراءة الشيعية وقراءة العثمانية سنرى أن هناك في الحالة الأولى ما يشبه الانتقائية تجاه الصحابة وأن في الحالة الثانية تضخيماً مفرطاً لدور علي وسنرى أخيراً في حالة العثمانية قيام مقارنته ليست بين عثمان وعلي بل بين أبي بكر وعلي بهدف البرهان على أن أبا بكر يفوق علياً في الفضل".⁴

إذا كان جعيط ينظر إلى الروايات و الأخبار من جهات يتحصّل من مجموعها الحكم عليها قبولاً أو ردّاً، فينظر إليها باعتبار طرقها و أحوال روايتها و باعتبار الرواية ذاتها فإنّه من خلال تحليله واستقراءه لأحداث الفتنة المتغلغلة في الوعي الجمعي الإسلامي يحاول أن يكشف الكثير من المغالطات التاريخية كما يروم الرد على دعاوى المستشرقين الذين استثمروا الكثير من المرويات الضعيفة للحط من شأن الصحابة وأهمهم بالتكالب على اقتسام

(1) جعيط، الفتنة، ص325.

(2) راجع: الجابري، محمد عابد، نحن والتراث: قراءه معاصرة في تراثنا الفلسفي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط1، 2006.

Nassif Nassar, la Pensée réaliste D'Ibn Khaldoun, 2eme édition, Presse Universitaire de France, Paris 1977.

(3) ابن خلدون، تاريخ، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، لبنان، ط2، 1988، ص49.

(4) جعيط، الفتنة، ص302.

دولة النبي، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينجح في إرساء معالم دولة قويّة الأركان والبنیان وحجّتهم اختلاف المسلمين غداة وفاة نبيهم.

ومن هنا نؤكد حاجتنا لدراسات تاريخيّة واجتماعيّة وسياسيّة كالتّي قدّمها هشام جعيط والتي اتّصفت بالشموليّة؛ فما على دارس التاريخ إلّا أن يكون خبيراً بالفلسفة والقانون وعلوم الطّبيعة والجغرافيا وعلم الأجناس والاجتماع والسياسة وغيرها لأنها بمثابة العلوم المعاول التي يحتاجها المؤرخ.

وفي النهاية يبقى كتاب الفتنة وثيقة تاريخيّة - رغم الانتقادات التي واجهتها - تساعدنا على إعادة قراءة تاريخنا الماضي حتى تتسنى لنا فرصة الفهم والنقد والتجرد من كل الأساطير التي تعيق فهمنا لذواتنا ولعلاقتنا بكل ما هو مقدس، ولكن للأسف إن عملاً فكرياً بهذا الثراء لمؤرخ ومفكر إسلامي عبقرّي و موهوب في قيمة هشام جعيط لم يجد من الاحتفاء إلّا أقله، وهذا ما يدعونا إلى دعوة الباحثين إلى تركيز أبحاثهم ودراساتهم على الأعلام المعاصرين من أمثال جعيط بل وإقامة الندوات والملتقيات العلميّة والفكريّة للتعريف بهم وبأفكارهم وأعمالهم.

الهوامش:

- البوطي، محمد سعيد رمضان، كبرى اليقينيّات الكوتية، دار الفكر، سوريا، ط8، 1982.
- الجابري، محمد عابد، نحن والتراث: قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفيّ، مركز دراسات الوحدة العربيّة، لبنان، ط1، 2006.
- جعيط، هشام، الفتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام، ترجمة خليل أحمد، دار الطليعة، لبنان، ط4، 2000.
- ابن خلدون، تاريخ، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، لبنان، ط2، 1988.
- السباعي، مصطفى، منهجيّة الاستشراق والمستشرقون، المكتب الإسلامي، لبنان، ط1، 1979.
- صابر، حلمي عبدالمنعم، منهجيّة البحث العلميّ و ضوابطه في الإسلام، رابطة العالم الإسلامي، السعودية، 1418هـ.
- علال، خالد الكبير، بحوث حول الخلافة والفتنة الكبرى خلال العهد الراشدي، دار كنوز الحكمة، الجزائر، ط1، 2009.
- الغريسي، محمد، تاريخ الإسلام السياسي من الحكومة النبويّة حتى العصر العباسي الأول، مجمع الأطرش للكتاب المختصّ، تونس، 2023.
- مغربي، عبدالغنيّ، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، ترجمة محمد الشريف بن دالي، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1988.
- المزوغي، محمد، الاستشراق والمستشرقون في فكر هشام جعيط، منشورات الجمل، 2016.
- المودودي، أبو الأعلى، الخلافة والملك، شركة الشهاب، الجزائر، د.ت.

Nassif Nassar, la Pensée réaliste D'Ibn Khaldoun, 2eme édition, Presse Universitaire de France, Paris 1977.

C. Robin, la civilisation de l'Arabie méridionale avant l'Islam, in l'Arabie du sud, ed.J.Chelhod, Num1.